المصدر: روزاليوسف
التاريخ: ١٩٩٢/٣/٣٠

أيام السادات الأخيرة

ألف وجه للسادات !

« باع » الترام لليسار وللاخوان وللأمريكان !

□ بالمكر.. كسب السادات السلطة والحرب والأرض.. وخسر حياته !

□ وصف فورد بأنه فلاح مثله.. ونيكسون بأنه استراتيجي مثله.. وكارتر بأنه متدين مثله !!

عبارة سياسية ، شهيرة . وخطيرة .. رددها السادات ـ فى أيامه الاخيرة ـ كثيراً : « ٩٩٪ من أوراق اللعبة فى الشرق الاوسط فى يد الولايات المتحدة الأمريكية ! »

واللعبة فى الشرق الأوسط .. نفط .. نفوذ .. عداء للسوفييت .. وسلام إجبارى مع إسرائيل .

كانت العبارة غريبة .. مؤلمة .. فيها مفاجاة ، وجراة ، واعتراف ، يصعب على اى حاكم ، وطنى ، مهما كان واقعياً ان يعلنه ، ويكرره بسهولة وسعادة كما كان السادات يفعل .. وقد اثار هذا الاعتراف خصوم السادات .. فكانوا يصفونه بالانحياز ، الاعمى ، لـواشنطن ، وللغرب عموماً .. وكانوا يقولون : إنه يعرض على واشنطن اكثر مما تريد .. وكانوا يصفونه احياناً بما هو اسوا .. العمالة والتبعية .. مثلاً .

ولكن ....

بعد اكثر من ١٠ سنوات على رحيله ، خرج الامريكيون بمفاجاة قلبت كل ذلك راساً على عقب .. وفرضت علينا إعادة النظر فى تقييم شخصية ، السادات ، السياسية .. واسلوبه فى ، اللعب ، على مائدة ، الصراع ، الدولى .

ففى كتاب ، النقاب ـ الحروب السرية لوكالة المخابرات المركزية ، يقول ، بوب وود ورد ، نقلاً عن ، وليم كيسى ، المدير الأسبق للوكالة :

ـ ، إن العكس هو الصحيح ، !

اى ان اوراق اللعبة كانت فى يد السادات .. لا فى يد الولايات المتحدة ، ولا فى يد غيرها !

ثم يضيف :

ـ إنه فى اشهر حكم السادات الاخيرة ، استنتج محللو المعلومات والشخصيات فى الوكالة ان السادات يجيد إخفاء حقيقة ما فى اعماقه .. وان ما يعلنه غير ما يكتمه دائماً .. إنه من النوع الذى يبتسم فى وجه اعدائه .. وقد ياخذهم فى احضانه .. خاصة إذا كان غير قادر على الإجهاز عليهم .. وهو ينحنى للعواصف .. ويعطى للاقوياء حقهم .. وذلك إلى حين .. وحتى يصبح اقوى منهم .. وفى لحظة القوة تخرج انيابه واظافره .. وينقض بكل اسلحته .. وينقلب من حال إلى حال .. وفى اسلوب ميلودرامى .. مسرحى ، يبرر دائماً انقلاباته الحادة .. التى عُرفت بالصدمات الكهربائية .

ثم يستطرد :

ـ إن سر خطورة السادات يكمن فى انه يجعل « كل طرف يظن انه يملكه ويسيطر عليه » .. وهذا غير صحيح .. « لانه فى النهاية مثل الزئبق لا يمكن الإمساك به » .. وهو من الطراز الذى « يشترى بسرعة ويبيع بسرعة » .. وفى الحالين لا يسال عن الثمن .. فالمهم عنده البقاء ، والاستمرار فى السلطة .. لا المكسب ، ولا الخسارة .. لان كل شىء يفقده ـ غير الحكم ـ يسهل تعويضه .

ففى وقت واحد « كانت الولايات المتحدة تعتقد انها تملكه .. والجيش المصرى ايضاً .. وكذلك تصورت بعض البلاد العربية قبل توقيع معاهدة كامب ديفيد .. وإسرائيل بعد معاهدة كامب ديفيد كذلك » .

ومن قبل ، كان هذا الاعتقاد من نصيب السوفييت .. ودول العالم الثالث .. ودول عالم عدم الانحياز .. واليسار .. والإخوان المسلمين .. والناصريين .. والوفد .. والجماعات الإسلامية .. ومحمد حسنين

هيكل .. ود . فؤاد مرسى .. ود . إسماعيل صبرى عبدالله .. وقائد الحرس الجمهورى الأسبق الليثى ناصف .. والمشير عبدالقدر الجمسى .. وغيرهم .

لقد اعتقدوا انهم ملكوا السادات .. هو الذى اوحى لهم بذلك .. ولكن .. كان هذا هو الوهم بعينه . وكانت هذه « طريقة السادات للإمساك بجميع الأوراق » الرابحة باستمرار .. ولكنها طريقة كُشفت فى النهاية .. وادى كشفها إلى ان اصبح الجميع ضده .. ومنهم الولايات المتحدة ، وإسرائيل .. حيث لم يطمئن رونالد ريجان .. الرئيس الامريكى الجديد الذى رفع شعار « إعادة هيبة امريكا » ، ولا مناحم بيجين ، رئيس وزراء إسرائيل ، وشريكه فى معاهدة السلام ، إلى انه سيواصل المشوار الذى بداه بعد الانسحاب الإسرائيلى النهائى من سيناء فى ٢٥ ابريل ١٩٨٢ .. فلم تنهمر دموعهما عند اغتياله فى ٦ اكتوبر ١٩٨١ .. وكان قد حاصرته العزلة على كافة المستويات .. ومن ثم .. استراحت انفاس كثيرة كانت مضطربة بعد ان قُتل وسط جو من الرضى الظاهر ، وفشل حراسه فى حمايته .

إن اللعبة التى برع فيها السادات ، فشلت هذه المرة مع الولايات المتحدة .. وكان الثمن حياته . لقد كان السادات مهماً بالنسبة للسياسة الأمريكية .. لكن الأهم بالنسبة لهذه السياسة أن تصرفاته اصبح من الصعب التنبؤ بها .. وردود أفعاله لم يعد من الممكن حسابها مقدماً .. وهو ما لا يمكن لسياسة قوة عظمى القدرة على احتماله ... مهما كان صاحبها قريباً إلى قلوب صناع هذه السياسة ، ومنفذيها . والقاعدة هنا . عدو عاقل افضل من صديق متهور .

وكان اول من حذر الأمريكيين من « خبث » السادات ، وليم كولبى ، المدير الاسبق لوكالة المخابرات المركزية .. وفى مذكراته التى تحمل عنوان « الرجال الشرفاء » يقول : إن السادات « فتح نفسه وبلاده لنا وللمصالح المشتركة ، المصرية ـ الأمريكية .. ولكنه كان مثل طريق ذى اتجاهين .. خطره مزدوج » .

ويروى كولبى ما يؤكد أن السادات كان « مزاجياً » .. يمكن ان يضحى بمصالح الآخرين ، ولو كانت حيوية ، فى سبيل مصالحه ولو كانت عابرة .. فقد حدث ان قام كولبى ـ وهو فى الخدمة ـ برحلة فى سنة ١٩٧٥ ، إلى فلوريدا ليقابل السادات ـ الذى كان فى زيارة للولايات المتحدة ـ ويناقشه فى امور تتعلق باتفاقية الفصل بين القوات المصرية ، والإسرائيلية .. وجلس كولبى فى سيارة منتظراً الإذن من السادات .. ولكن ذلك لم يحدث .. وامضى كولبى الليلة (وكانت ليلة عطلة نهاية الاسبوع) جالساً فى السيارة خارج مقر إقامة السادات دون ان يتمكن من مقابلته ، لان السادات كان مشغولاً مع التليفزيونية اللامعة « بربارة والترز » ، التى كان يروى لها قصة حياته .. ويتحدث إليها عن طفولته وقريته .

وفى اليوم التالى قدم كولبى تقريراً للرئيس الأمريكى قال فيه : « إن السادات رئيس دولة يصعب ترويضه .. وانه يحدد حجم مصالحه بالقدر الذى يتحدث فيه عن مصالح الآخرين » .

لكن .. كان من الصعب على الإدارة الأمريكية ان تاخذ بهذا التقرير فى ذلك الوقت الذى كانت تشعر فيه بان ابواب مصر تفتح امامها من جديد ، بعد ان اغلقها جمال عبدالناصر بالضبة والمفتاح .

على ان هذا التقرير خرج من الملفات القديمة ، بعد ٦ سنوات ، ليصبح صالحاً للاستعمال ، فى ظل إدارة الرئيس رونالد ريجان .. الجديدة .. التى قررت ان تبدأ مرحلة مختلفة فى الشرق الاوسط ، تختفى فيها الوجوه السياسية التى لم تعد مريحة .. فكان ما كان .

إن اسلوب السادات السياسي الذى كان احد اسباب التخلص منه ، كان سر نجاحه وازدهاره منذ تولى السلطة ، بعد وفاة جمال عبدالناصر .. وقد وصف البعض هذا الاسلوب بانه النموذج الأمثل لمكر الفلاح المصرى .. وكان السادات يعجبه هذا الوصف كثيراً .. ويسعده ، ويشعره بالامتنان اكثر .

وفى كتابه « السادات الذى عرفته » يلاحظ عبدالستار الطويلة ان السادات تحدث عن « مكر الفلاح المصرى » - فى مؤلفاته التى كتبها عن ثورة يوليو قبل سنوات من توليه الحكم - كاسلوب لجأت إليه الثورة للتخلص من المشاكل السياسية .. مثل جلاء القوات البريطانية .. والمتاعب الاقتصادية .. والصراعات الإقليمية والدولية .

وفى تفسير عبدالستار الطويلة : « إن مكر الفلاح المصرى يعنى الدهاء .. والذكاء الفطرى .. والصبر جنباً إلى جنب البساطة والعراقة » .. ولكنه بعد التفسير يضيف : « واعتقد ان انور السادات دفع فى النهاية (حياته) ثمناً فادحاً لحكاية مكر الفلاح المصرى هذه » .

ولكن .. قبل ان يدفع الثمن .. جنى الثمار ..

وكانت الثمرة الاولى نجاحه فى خداع إسرائيل قبل حرب اكتوبر ١٩٧٣ .. إن جهاز المخابرات الإسرائيلية المشهود بكفاءته فوجىء بالحرب ..

وحتى الآن لا يصدر كتاب عن « الموساد » دون اعتراف بالخيبة والفشل فى شم رائحة الحرب .. وقد كان السادات بارعاً فى تمثيل دور القائد المحبط ، الذى لا يمكن أن يحارب ، بدرجة مذهلة ، جعلت مخابرات العدو لا تصدق أنه سيحارب .. مع أن بعض معلومات وتقارير العملاء أكدت ذلك .

وكان أخطر هذه المعلومات ، وأكثرها إثارة ، تلك التى جاء بها أحد عملاء الموساد ، وهو استاذ للغات الشرقية ، كان دائم السفر إلى أوروبا والشرق الأوسط .. وكان بارعاً فى إقناع معظم زملائه بأنه شارد الذهن دائماً .. لا يهتم بالمراة ، ولا بالسياسة .. وقد وصل إسرائيل مساء يوم ٤ أكتوبر ١٩٧٣ ، وهو يحمل فى حقيبة يده - التى لا يتركها تغيب عن نظره - مجموعة كاملة من التقارير عن الهجوم .. بل إن هذه التقارير أعطت العملية اسم « بدر » .

وعندما رفعت هذه التقارير إلى رئيسة الوزراء جولدا مائير ، ووزير الدفاع موشى ديان ، أصرا على أن العرب - وبالذات المصريين - يسربون عن عمد معلومات كاذبة إلى الموساد .. وبعد حوالى ٤٨ ساعة بدأ العبور ..

وتعرضت المخابرات الإسرائيلية إلى انتقادات حادة .. وسقطت دولتها هناك .

أما الثمرة الأخرى .. فكانت مبادرة السلام .

إن إسرائيل فوجئت أيضاً بإعلان السادات أنه مستعد لزيارتها .

كان ذلك فى ٩ نوفمبر ١٩٧٧ ، فى مجلس الشعب ، حيث كان السادات يتحدث ، وكان الزعيم الفلسطيني ياسر عرفات ، يجلس فى الصفوف الأولى .. أما رئيس الوزراء الإسرائيلى

مناحم بيجن ، فكان يشاهد فى بيته ، هو وزوجته ، اليزا ، الفيلم الذى يقدمه التليفزيون .. واسمه ، جونجادين ، .

لقد فوجىء الجميع بقرار السادات إلا زوجته جيهان التى كانت تعرف بالقنبلة التى سيفجرها زوجها قبل ٢٤ ساعة من التفجير .. وقد لاحظت جيهان بعد عودة زوجها من مجلس الشعب انه - رغم الهدوء الذى يسيطر عليه - وضع مسدسه تحت وسادته عند دخوله الفراش .

وفى ذلك اليوم ظل السادات نائماً - كعادته - حتى الساعة الحادية عشرة قبل الظهر .. ولم يعرف ان مناحم بيجن ، ورجاله ، لم يناموا فى تلك الليلة .. ومن جديد وجه رئيس الوزراء الإسرائيلى اللوم لأجهزة مخابراته لفشلها فى معرفة مبادرة السادات قبل إعلانها ، بالرغم من وجود مؤشرات ، واتصالات ، سابقة .

ويعترف بيجن بان مشاعره تجاه السادات - التى كانت مزيجاً من الاحتقار والخوف - انحازت ناحية الخوف .. ولم يعد منذ ذلك الوقت يطلق النكات على السادات ، ولم يعد يصفه بكلمة ، زوداك ، .. وهى كلمة روسية تعنى ، الوغد ، .

وبالرغم من أن بيجن وجه للسادات دعوة رسمية لزيارة القدس ، وقال باللغة العربية ، اهلاً وسهلاً ، ، فإن رئيس الأركان الإسرائيلى موردخاى جور لم يصدق دعوة السادات للسلام ، وقال فى حديث للصحفى إسرائيل هاريل : ، يجب ان يكون واضحاً للرئيس السادات انه لن يستطيع ان يخدعنا مرة أخرى كما فعل فى حرب ، يوم الغفران ، ، فنحن نعرف ان الجيش المصرى يستعد لشن حرب ضد إسرائيل فى عام ١٩٧٨ ، وذلك بالرغم من كل

تصريحات السادات عن استعداده للقدوم إلى القدس ،

وحتى غادر السادات القدس كانت إسرائيل تتصور ان وراء زيارته خديعة عسكرية ما .. وكان اول ضحايا هذه الزيارة من الجانب الإسرائيلى ، هو الجنرال جازيت مدير الموساد .. الذى اقيل من منصبه بسبب فشله فى معرفة المبادرة قبل إعلانها .. اما اول الضحايا من الجانب المصري فكان أحد الحراس الشخصيين للسادات .. فقد وجد ميتاً فى صباح اليوم التالى للزيارة فى فراشه بفندق الملك داود ، حيث كان ينزل الوفد المصرى ، وكانت الوفاة إثر نوبة قلبية فاجاته اثناء نومه .

إن الحرب والمبادرة اخطر مفاجات دهاء السادات كفلاح مصرى .

ولكن .. على المستوى الداخلى لم يفرز هذا الدهاء سوى التوتر والاضطراب .

لقد بدا حكمه وهو على استعداد للرهان على اى شيء يملكه او لا يملكه .. وعلى استعداد للعب باية ورقة تقع فى يده .. فى ١٥ مايو ١٩٧١ اطاح بمن اسماهم مراكز القوى ، وبمن وصفهم بانهم ، موالون للسوفييت ، .. وقبل اقل من اسبوعين .. وفى ٢٧ مايو ١٩٧١ ، تطرف فى علاقته بالسوفييت إلى حد لم يصل إليه جمال عبدالناصر نفسه ، ووقع معاهدة للصداقة والتعاون معهم .. وقبل اقل من العام ، وفى صيف ١٩٧٢ ، انقلب عليهم ، وطرد خبراءهم من القوات المسلحة .. ثم راح بعد فترة وجيزة من حرب اكتوبر يهاجمهم بضراوة ، ورتب سياسته الداخلية والخارجية على محاربتهم قدر ما يستطيع ، وبكل ما يملك من اسلحة .

وبدا حكمه بالحديث عن الديمقراطية وسيادة القانون ، وحكم الدستور ، ودولة المؤسسات .. وانتهى حكمه بترسانة من

القوانين الاستثنائية والشاذة ، التى وصفت بانها قوانين سيئة السمعة ، وضرب احزاب المعارضة ، واغلق صحفها ، وسجن رجالها - مع باقى رموز المجتمع المصرى - بعد ، هوجة ، الاعتقالات الكبرى فى سبتمبر ١٩٨١ ، والتى كانت بداية العد التنازلى لحكمه ولحياته .

فى جلسة تنصيبه رئيساً للجمهورية انحنى انحناءة - كانت محل انتقاد - امام تمثال جمال عبدالناصر فى البرلمان ، واعلن انه سيمشى على طريقه ، لكن ما ان سكتت مدافع حرب اكتوبر حتى راحت مدفعية الإعلام الرسمى ، تدك تاريخ وسمعة وتجربة جمال عبدالناصر وامتدت الدانات والشظايا والشراك الخداعية إلى بيت ، الزعيم الراحل ، وقبره ، وذمته المالية .

وفى سنوات حكمه الاولى تحالف السادات مع بعض فصائل اليسار .. لكن .. سرعان ما اعلن الحرب المقدسة ضدهم جميعاً .. كل فصائل اليسار ، وتياراته المختلفة .. وفى هذه الحرب برزت اسلحة التشهير والتلفيق والتكفير .

وراهن على الإخوان المسلمين ، ومد يده إلى قاع التاريخ حيث يرقد السلفيون ، ودعم الجماعات الإسلامية .. ثم .. كان ان انقلب على هؤلاء جميعاً .. وانتهت الامور بينه وبينهم إلى اقصى درجات العداء .. الاعتقال .. ثم الاغتيال .

فتح صدره لليمين السياسي والاقتصادى ، وقبل ان يعود حزب ، الوفد ، وعلى راسه فؤاد ، باشا ، سراج الدين ، وترك الحبل على الغارب للراسمالية الطفيلية ، تكسب بغير حق ، وتنهب بغير حساب ، ولم يمت إلا وزعماء ، اليمين ، فى السجن .

امسك بكل الخيوط .. لعب على كل الحبال .. راهن على كل الجياد ..

وهذا يفسر تارجح تصرفاته المفاجىء ، والحاد من النقيض إلى النقيض .. من الضد إلى الضد .. من اليسار إلى الإخوان .. من

الديمقراطية إلى الديكتاتورية .. من حرية التعبير إلى تجريم الرأى الآخر .. من الإحساس بالعظمة إلى الإحساس بالاضطهاد ..

تناقضات هائلة سيطرت على القمة وعكست نفسها على المجتمع المصرى - الذى يعد الحاكم فيه نموذجاً لا يمكن إنكار تأثيره - وافقدته توازنه . وجعلته عرضة للتارجح والاهتزاز المتواصل . الذى ادى به إلى الدوار .. والإغماء .. فنحن فى مجتمع اشتراكى يبيع القطاع العام .. ونحن فى مجتمع ديمقراطى يعتقل رموزه فى ساعات .. ونحن فى مجتمع فقير يعيش حاكمه كشاه إيران .. ونحن فى مجتمع نام يركب فيه البعض افخر السيارات .. اى تناقض يمكن ان يكون اكثر من ذلك ؟!

إن التناقض - الذى جاوز الحدود - جعل الأجيال الجديدة الشابة لا تثق فى شىء .. وتكفر بكل شىء .. فكل شىء امامها كاذب .. غير حقيقى . مشوه .. الاشتراكية .. الديمقراطية .. الليبرالية .. اليسار .. اليمين .. الوسط .. الغرب .. الشرق .. القومية .. العروبة .. والوطنية .. ولم يبق امام هذه الاجيال سوى التطرف باسم الدين .. إطلاق النار باسم التخلص من الكفار .. حرق المجتمع باسم تطهيره من الرجس والفساد .. وكان اشهر ضحايا هذه الفلسفة الجديدة هو السادات نفسه .. فقد حصد ما غرس ..

وفى شخصية السادات ما يدعم ذلك .. فهو حريص على مجاراة الآخرين فى ذوقهم .. وكانه مثلهم .. فعندما اكتشف ان الرئيس الأمريكى جيمى كارتر يحب الحان « الميدوست » الشعبية فى الولايات المتحدة . طلب منه ان يسمع بعضها فى سهرة التكريم التى اقامها كارتر له بعد العشاء فى البيت الابيض .. ويقول موسى صبرى : إن السادات اظهر « طربه العميق مما سمع » .. واضاف : « وكنا نحن الصحفيين نبتسم لهذا الطرب السياسي » .. وعندما عرف ان المستشار الالمانى هيلموت شميت يجيد عزف

الموسيقى الكلاسيكية ، طلب منه كونشرتات بيتهوفن .. وفى الحقيقة كان السادات لا يطيق سماع الموسيقى الكلاسيكية ، ولا اغانى « الميدوست » ، وإنما كان يطرب لصوت محمد قنديل ، وام كلثوم ، ويغنى لاسمهان .. وكان يبحث عن بليغ حمدى ليسمع منه « تقاسيم » شرقية .. وفى حفل زواج ابنته الكبرى (من جيهان) طلب من فرقة الموسيقى العربية (التى كان يقودها عبدالحليم نويرة زوج شقيقته سكينة السادات) إحياء الحفل .

وسعى السادات فى علاقته بزعماء العالم إلى إقناع كل منهم ، بانه يحمل إحدى صفاته .. وذلك من باب التاثير العاطفى عليهم .. فالرئيس الامريكى الاسبق فورد .. « فلاح مثلى .. فيه كل صفات الفلاح .. الصراحة والبساطة » .. على حد قول السادات .. وسلفه الرئيس ريتشارد نيكسون مثله ايضاً .. ولكن كسياسي استراتيجى جرىء .. والرئيس جيمى كارتر مثله كذلك .. ولكن كرجل متدين ..

اما الرئيس ريجان فلم يستطع السادات ان يكسبه او يؤثر عليه ، او يغازل عواطفه .. لم يستطع ان يمارس - فى وجوده - مكر الفلاح المصرى .. بعد أن انكشف هذا المكر .. وفقد صلاحيته .. ثم .. إن الولايات المتحدة بدات مع انتخاب ريجان مرحلة استراتيجية جديدة مختلفة .. كان لابد ان تختفى فيها كل الوجوه القديمة .. وكان السادات ابرز هذه الوجوه .. وعندما قتل .. احس الامريكيون بالراحة .. وبكوا عليه .. ولكن دموعهم كانت دموع تماسيح ■

عـادل حمـودة